الفعل التعبيري في دالية أبي العلاء المعري "ضجعة الموت رقدة" التي يرثي فيها فقيها حَنَفِيًّا – مقاربة تداولية

أ/ عبد الرحمان دحماني
أستاذ مساعد
جامعة محمد خيضر –بسكرة-

الملخص:

تحت عنوان (الفعل التعبيري في دالية أبي العلاء المعري "ضجعة الموت رقدة" التي يرثي فيها فقيها حنفيا – مقاربة تداولية) بدا لنا من الأهمية بمكان أن نتناول (الفعل التعبيري) انطلاقا من (فعل القول) الذي ينطوي على (الفعل القضوي الفعل الإنجازي فعل التأثير بالقول).

وإنما استمد (الفعل التعبيري) هذه الأهمية التي من أجلها استحق أن تُصرف إليه العناية من ملابسته لغيره من الأفعال وإن تفاوت نصيبه فيها حضورا وأهمية تبعا لنوع الخطاب والغرض الذي سيق له.

وكان من الملائم أن نقارب القصيدة التي نحن بصددها من جهة هذا الفعل لنعلم مدى حاجة هذا الغرض الشعري الموروث إلى (الأفعال التعبيرية) وإلى أي مدى يمكن للشاعر أن يقنع من جهة التأثير أو يؤثّر من جهة الإقناع؟

Le résumé :

L'acte locutionnaire dans "l'allongée de la mort est un sommeil". élégie pour un théologien jurisconsulte hanafite en un poème à rime de son [*d*] - approche pragmatique. il nous a été si important d'aborder dans ce thème l'acte locutionnaire tout en partant de l'acte de parole qui. à son tour. renferme l'acte propositionnel. l'acte perlocutionnaire et l'acte illocutionnaire.

L'importance que celui-ci requiert découle de la confusion qui pourrait se produire avec d'autres actes bien qu'ils soient de présence et d'importance moindres et cela est en fonction du type et du genre de discours.

Il nous a été aussi propice d'aborder le présent poème à travers cet acte afin de savoir le besoin que ce type poétique hérité a pour les actes illocutionnaires. et encore à tel point le poète pourrait convaincre par son influence ou. influencer dans sa tentative de persuasion ?

توطئة:

يمكن لمن زاول قراءة الشعر العربي وتمرس به حتى نفذ بما أوتي من ذوق سليم وحس مرهف وفهم قويم إلى جوهر التجربة كما عاناها وتمثلها صاحبها وأفاد من الدراسات والأبحاث التي قاربت النص الشعري مقاربة تداولية وأمعن النظر في الأفعال التي يكون قد انطوى عليها كل غرض من أغراضه – تبين له في وضوح مدى حاجة الشعر لاسيما الرثاء منه لهذا الضرب من الأفعال. وذلك لتعويل الشاعر على وجه العموم والراثي على وجه الخصوص على العاطفة قبل العقل والإصغاء إلى صوت الوجدان وما يعتمل في النفس ويدلهمّ من تجارب يمتزج فيها الشعور باللاشعور والمعقول باللامعقول والذاتي بالموضوعي والحقيقة بالخيال.

ومن هنا بدت لنا أهمية مقاربة هذه المرثية "ضجعة الموت رقدة" من جهة (الفعل التعبيري) وما يتصل به ويفضي إليه من الأفعال.

نقول بهذا وفي أذهاننا علاقة هذه الأفعال بغيرها إذ ما من فعل من الأفعال الكلامية إلا وفيه من التعبيرية نصيب.

وإذن فلا غرابة في أن نعرض إلى جانب (الفعل التعبيري) الذي هو محط الاهتمام وعليه المدار إلى تلك الأفعال ذات الصلة كلما دعت الحاجة انطلاقا من "فعل القول". (1)

وحرصا منا على الإيضاح والضبط المفضيين إلى الغرض من أقرب سبيل كان علينا أن نأخذ في الاعتبار:

-اعتبار التواصل الوظيفة الأساسية للغة وعنها تتفرع بقية الوظائف التي منها الوظيفة التعبيرية. (2)

- تعد الجملة أو فعل القول (وحدة دنيا مفيدة) لا بد منها في بناء الخطاب اللساني. (3)

- كون الأفعال الكلامية تجمع بين النفعية والتعبيرية على ما بين هذين من التفاوت حضورا وأهمية.

- للوقوف على أي من الأفعال لا بد من الانطلاق من (فعل القول).

- يعد (الفعل الإنجازي) الأكثر أهمية عند "أوستين" و"سيرل" وكل من نظر في الأفعال اللغوية بعدهما.(4)

- الخطاب يمتد من الجملة أو (فعل القول) على أنه (وحدة دنيا مفيدة) إلى متوالية من الجمل والأفعال.(5)

- لا يعد الفعل فعلا كلاميا ما لم يقترن بالقصد.(6)

أ-فعل القول و (الخطاب):(7)

غير مجد في ملتي واعتقادي *** نوح باك ولا ترنّم شاد

وشبيه صوت النعيّ إذ قيـ *** ـس بصوت البشير في كل ناد

أبكت تلكم الحمامة أم غنـ *** ـت على فرع غصنها المياد ؟

وواضح أن الفعل الرئيس هو قوله "غير مجد... نوح باك" وهو عبارة عن جملة اسمية تشبه أن تكون فعلية لكون المحمول (مجد) فيها وصفا وذلك لما بين الفعل والوصف من الصلة التي لا يتسع المقام لبسط القول فيها هنا.

والفعل الرئيس هو قوله "غير مجد... نوح باك.." في البيت الأول وما عداه من الأفعال فهو تابع له بسبب من أسباب التبعية التي لا تعدو هنا التوضيح والتوكيد معا. أما التوضيح فهو متأت من التنويع في التضاد "صوت النعي≠ صوت البشير" و"بكت ≠ غنت" مع عدم الخروج عن أصل المعنى الذي دل عليه الفعل الرئيس.

وأما التوكيد فهو متأت من تكرار بعض ما انطوى عليه (فعل القول) الرئيس في البيت الأول.

ب- الفعل القضوي:

وينضوي تحته فعل (الإحالة) وفعل (الإسناد).

1-فعل الإحالة:

وينطوي على:

-**المتكلم**: وهو أحد أركان الخطاب (فعل القول) ويحيل عليه ضمير المتكلم (الياء) في "ملتي اعتقادي" بيد أن هذا الضمير لا يحيل على معين بذاته لذلك لا بد من التعويل على السياق الخارجي فهو وحده الكفيل بأن يرينا أن المحال عليه بهذا الضمير إنما هو المعري دون سواه ولا علينا بعد ذلك أن يكون المعري قد أبدى ما أبدى من الرأي على لسان غيره منتصرا لذلك الغير أو معترضا عليه. ودليلنا في هذا السياق ديوانه "سقط الزند" الذي تصدرت فيه هذه القصيدة "ضجعة الموت رقدة" القصائد التي ضمها بين دفتيه.

- **المخاطب:** وما قيل في المتكلم يقال في المخاطب من حيث افتقار (فعل القول) إلى ما يدل على مخاطب معين معني. وإذن فلا مناص لنا من التخمين طالما تعذر التعويل على اللفظ. ولا شك في أن تخميننا ذاك يقودنا إلى عدم استبعاد بل ترجيح أن يكون هناك مخاطبان يكون الشاعر قد استحضرهما أو استحضر أحدهما على الأقل في ذهنه لحظة إنشاء القول:

- أما المخاطب الأول: فهو أهل الفقيد (الفقيه الحنفي) وذووه وعلماء وفقهاء المذهب ثم المعاصرون ثم كل من قدر له أن يتلقى الخطاب قصد إليه الشاعر أم لم يقصد.

- وأما المخاطب الثاني فهو على صلة بجوهر (الفعل التعبيري) الذي هو موضوعنا ومقتضى هذا الفعل أن يخاطب الشاعر نفسه ولا يحتاج المتكلم الذي هو المخاطب في الوقت ذاته –والحال هي هذه- إلى محيل من لفظ (فعل القول) بل المحيل هو قرينة الحال المتمثلة في حاجة الشاعر إلى أن ينفس عن نفسه وقد قيل: "لابد للمصدور أن ينفث". [8]

ولمثل هذا الذي يصير فيه المتكلم مخاطبا على اعتبار أنه المتكلم والمخاطب معا أصل في الشعر العربي. نجد ذلك فيما عرف بالخطاب على سبيل التجريد كما في قول النابغة: [9]

دعاك الهوى واستجهلتك المنازل *** وكيف تصابي المرء والشيب شامل

والتجريد خطاب إلى النفس يكون الشاعر فيه قد جرد من نفسه نفسا غيرها ليتوجه إليها بالخطاب. فهو يعمد إلى ذلك لحاجة في نفسه أعياه مطلبها من جهة المعتاد في الخطاب الذي يخاطب فيه المتكلم غيره حقيقة لا حكما. ولسائل أن يسأل: ما عساها أن تكون تلك الحاجة التي كانت الباعث على عدول الشاعر إلى هذا النحو من الخطاب؟.

وقد لا نبلغ من الإجابة عن مثل هذا التساؤل القول الفصل ولكننا في الوقت ذاته لا نعدم صوابا حين نفهم هذا العدول على أنه تعبير عن حالة نفسية يحكمها أمران:

الأول: أن الشاعر قد يستبد به اليأس والهم والغم فيدفعه ذلك دفعا إلى أن يسلك سبيل أسلوب التجريد لعله يستوعب الحالة النفسية التي عجز المعتاد في التعبير عن استيعابها. ويقوي هذا الرأي اتهام اللغة بالعجز عن استيعاب الحاجات.

وآية هذا العجز أن المتكلم لاسيما إذا كان شاعرا ذواقة لا يرده عن التطلع إلى الأفضل والأرقى والأوفى ما حضره من ألوان التعابير وأوجه التراكيب بابتداء بالغة ما بلغت من الإحكام والكمال. فهو بحكم المركوز في الجبلة لا ينفك عنه الشعور بأن ما تم التعبير عنه هو دون ما تحدث به النفس وتطويه في أعماقها. وما نود أن ننتهي إليه من حديثنا عن التجريد هو أن الباعث عليه هو ذاته الباعث على الفعل التعبيري وإن اختلف الأسلوب والكيفية.

الثاني: ويتمثل في عدم وجود الآخر الذي هو أهل لأن يبثه الشاعر شكواه ويفضي إليه بآلامه وأحزانه وهمه وغمه.

وإذن فلا على الشاعر من تثريب –والحال تلك- أن يتخذ من غير جنس البشر بديلا يخاطبه ويدفع به عن نفسه عاديات الزمان والشعور بالغربة بين الأحياء.

ويؤيد ما نذهب إليه من الرأي في ذلك تعدد البدائل عن المخاطب الحقيقي في خطابات الشعراء. كلما انتابهم الشعور بالافتقار إلى المخاطب الحقيقي الموضوعي فقد خاطبوا

الطير والشجر والأماكن من جبال وأودية.. وكل ما يمت إلى الحالة النفسية الراهنة بصلة. وإذن فقد تعدد المخاطب بتعدد الحالات النفسية التي تنتاب أصحابها.

وخشية الإطالة نكتفي بهذين النموذجين:

الأول: قول الخنساء تخاطب الديك:(10)

ألا أيها الديك المنادي بسحرة *** هلمّ أخبرك بما قد بدا ليا

بدالي أني قد رزئت بفتية *** بقية قوم أورثوني المباكيا

فلما سمعت النائحات ينحنه *** تعزيت واستيقنت أن لا أخاليا

كصخر بن عمرو خير من قد علمته *** وكيف أرجي العيش؟ ضلّ ضلاليا

ومالي لا أبكي على من لوانه *** تقدّم يومي قبله لبكى ليا

والمتأمل في الأبيات مع تمثل حال الشاعرة يدرك أنها قد عيل صبرها وبلغت من سوء تلك الحال ما لم يجد معه أن تخاطب البشر فكان البديل هو الديك.

أما النموذج الثاني فهو قول ليلى بنت طريف ترثي أخاها الوليد بن طريف الذي قتله يزيد بن مزيد الشيباني:(11)

بتلّ بناثا رسم قبر كأنّه *** على علَم بين الجبال منيف

تضمّن جودا حاتميا ونائلا *** وسورة مقدام وقلب حصيف

ألا قاتل الله الجث حيث أضمرت *** فتى كان بالمعروف غير عفيف

فإن يكُ أرداه يزيد بن مزيد *** فيا رب خيل فضّها وصفوف

ألا يا لقوم للنوائب والردى *** ودهر ملح بالكرام عنيف

وللبدر من بين الكواكب إذ هوى *** وللشمس همّت بعده بكسوف

أيا شجر الخابور مالكا مورقا ***كأنك لم تحزن على ابن طريف

فتى لا يحبّ الزّاد إلا من التُّقَى *** ولا المال إلا من قنا وسيوف

ولا الخيل إلا كلَّ جرداء شطبة *** وكل حصان باليدين غروف

فلا تجزعا يا ابنيْ طريف فإنني *** أرى الموت نزّالا بـكل شريف

فـقـدنـاك فـقـدان الـربيع وليتنا *** فدينـاك من دهـمائـنا بألوف

والنص كله يصلح لأن يكون شاهدا من شواهد (الفعل التعبيري) الذي يعني مخاطبة النفس على النحو الذي أوضحنا عند الحديث عن (المخاطَب) فضلا عن هذا النداء نداء الشاعرة شجر الخابور في قولها:

أيا شجر الخابور مالك مورقا ***كأنك لم تحزن على ابن طريفِ

بعدما أعياها أن تنادي العقلاء من حولها.

-**العبارة:** وهي (فعل القول) الذي يندرج تحته (الفعل القضوي والفعل الإنجازي وفعل التأثير بالقول).

وقد يتعدد (فعل القول) على اعتبار أنه (وحدة دنيا مفيدة) في الخطاب ليتألف من المجموع (فعل الخطاب) الكلي الشامل.[12]

-**القصد:** وهو أن يتوجه المتكلم بـ(الخطاب) أو (فعل القول) إلى المخاطب ليبلغه غرضه إن كان الفعل من أفعال القضايا أو ليعبر له عن غرضه فيه إن كان الفعل تعبيريا ولا مانع من الجمع بين الفعلين أو الغرضين بصرف النظر عن الراجح منهما. ولا بد في الفعل الكلامي من القصد وإلا فقد الصفة.[13]

2- فعل الإسناد:

ويتمثل في إسناد الفاعل (مجد) المسبوق بـ(غير) التي هي بمنزلة النفي الذي هو بعض ما يستند إليه الوصف (اسم الفاعل اسم المفعول صيغ المبالغة..) في عمله إذا ما أريد له أن يرفع أو ينصب مثلا –إلى فاعله (نوح باك) الذي أغنى عن الخبر وسد مسدّه.[14]

ج- الفعل الإنجازي (المتضمن في القول):

ربّ متعجل يرى أن (الفعل الإنجازي) في قول المعري "غير مجد... نوح باك " هو (الفعل الإخباري) المتمثل في الإخبار عن الذات وما وقر فيها.

ذلك أن هذا الذي تواطأ عليه الناس من التمييز بين الخير والشر والضحك والبكاء والتفاؤل والتشاؤم والأمل واليأس لا يعدو أن يكون ضلالا وأوهاما توهمها الجهلة الأغرار أو مغالطة يغالط بها المرء نفسه أو غيره مكابرة أو طمعا في غرض انطوت عليه النفس وإلا فالحياة في جوهرها أهون من أن يطمئن إليها عاقل:(15)

تصفو الحياة الجاهل أو غافل *** عما مضى فيها وما يتـوقّع

ولمن يغالط في الحقائق نفسه *** ويسومها طلب المحال فتطمع

وإذا ما أمعنا النظر فيما وراء الإخبار تبين لنا أن الفعل الذي يكون الشاعر قد رام إنجازه هو أقرب إلى (الفعل التعبيري) منه إلى (الفعل الإخباري). وكأني بالمعري قد علم أن سيحدث لدى متلقي آثاره أمر كهذا فنبّه عليه قبل حدوثه بمثل قوله:(16)

لا تقيّد عليّ لفظي فإني *** مثل غير تكلّمي بالمجاز

وهو ما يعني أن الآفة في التعامل مع القول الشعري إنما تتأتى من التقييد وزعم القول الفصل والحجر على الآخر أن يرى في ذات القول رأيا غير ذاك الذي رأه صاحب الرأي (بالألف واللام).

فالمعري لا يروم إخبار المخاطب بمجرد رأيه في الحياة فحسب بل ربّما كان الأهم من مجرد الإخبار التعبير عن حالة نفسية أورثته إيّاها الحياة التي ما فتئت تسوم بنيها ألوان العذاب والمعاناة:(17)

أخوك معذّب يا أمّ دفر *** أظلّته الخطوب وأرهقته

وما زالـت معاناة الـرزايا *** على الإنسان حتى أزهقته

كأنّ حـوادث الأيام آمٌ *** تُريق بجهلها ما أدهقته

تروقك من مشاربها بـمرٍّ *** وكـل شـرابها ما روّقته

ونفسي والحمامة لم تُـطوَّق *** مـيسَّرة لأمر طُوِّقَتهُ
أرى الدنيا وما وُصِفَتْ ببرّ *** متى أغنت فقيرا أوهقته
وإنها لأجدر أنثى أن تخون وأن تخني:[18]
على أم دفر غضبة الله إنّها *** لأجدر أنثى أن تخون وأن تُخْنِي

حالة نفسية تختلط فيها النقمة على الحياة بالسخرية اللاذعة ممن رمقها بعين الثقة والرضا وسعا حثيثا في طلبها ملتمسا لنفسه العذر في نظرته تلك بكون الحياة ليست من السوء والقتامة بالقدر الذي استقر عليه رأي المعري في نظرته إليها بل هي مزيج من هذا وذاك فهي مضحكة مبكية مرضية ساخطة في آن:[19]

من لك بالمحض وكلٌّ مـمتزج *** وساوس في الصدر منه تختلج
ما زالت الدنيا لـنا دار أذى*** ممزوجة الصفو بألوان القذى
الخيـر والشـر بها أزواج *** لذا نـتاج ولـذا نتاج
من لك بالمحض وليس محض *** يخبث بـعض ويـطيـب بـعض

هذا وللناس في الموقف من الدنيا مذاهب: فمنهم المفرط في الإنحاء عليها باللائمة حتى أوسعها قدحا وذما. والظاهر أن المعري إلى هؤلاء أقرب لا لنقص في العقل أو فجاجة في التفكير أو ضحالة في التجربة أو نزق أو مكابرة بل مرد ذلك إلى أن الحياة لم تنصفه فتولد في نفسه شعور بالغبن وتملكه اليأس والقنوط من الحياة والأحياء. وحق له أن يشكو هموم دنياه بمثل قوله:[20]

كـيـف لي يا عيش لو *** أصبح مولاك مُقيلا
قـد حـمـلنا مـن رزايا *** دهـرنا عبـئا ثقيلا
ومـلـلـنا منه مغـدى *** ومبيتا ومـقـيـلا
وأطـلـنا في بـني أيـ*** ـيامنا قـالا وقـيـلا

صـدئ الـعـقـل به من*** بعدما كان صقيـلا

وحق لأبي العلاء أن يشكو فيطيل الشكوى وأن يتمرد على دنيا أرته من سوء صنيعها ما أصدأ العقل وأثقل الكاهل وأسلم إلى رتابة قاتلة. ومن الناس من غالى في الثقة بالدنيا فأنزلها من نفسه منزلة الأم الرؤوم فألوت به على حين غفلة منه.

- ومنهم المتكالب عليها المشتط في طلبها حتى أوردته المهالك. أما العاقل فقد شدّه إليها هذه الثنائية ثنائية الخير والشر والحق والباطل والضحك والبكاء والسعادة والشقاء. واعتبر ذلك مزية فيها من أجلها نحب الدنيا وإليها نسعى ولكن بقدر الحاجة فلا إسراف ولا تقتير وإلا فما مزية العقل عند الإنسان إذا هو لم يرتق به إلى المنزلة التي من أجلها استحق الثناء: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا**﴾. [الإسراء 70]

فبالعقل الذي يدبر ويقدر ويرشد ويوجه كانت المزية:(21)

لولا العقول لكان أدنى ضيغم *** أدنى إلى شرف من الإنسان

ولما تفاضلت النفوس ودبرت *** أيدي الكـماة عـوالي المرّان

د- فعل التأثير بالقول:

والمقصود تأثير المتكلم في المخاطب بأن يحمله على الامتثال وموافقته في الرأي أو المذهب أو الوجهة. أو كأن يسري تأثير الخطاب في نفس المخاطب لما يحمله من شحنات وجدانية وكلما كان المخاطب أقدر على التجاوب مع المتكلم وتمثل حاله ومعاناته واستكناه دخائل نفسه كان له من الشحنات العاطفية والوجدانية على قدر ذلك.

وقد يتخذ المخاطب لنفسه وجهة غير تلك التي عليها المتكلم فيعارضه فيما يذهب إليه وقد يصحب ذلك شعور سلبي تنقبض له نفس المخاطب.(22)

وليس المخاطب الذي يرجى التأثير فيه هو ذلك الآخر المعهود في أدبيات الخطاب فحسب فإلى ذلك قد يكون المخاطب هو الذات الفاعلة المنفعلة التي يصدر عنها (فعل القول)

أو (الخطاب) ولا يمتنع الجمع بين المُخَاطَبَينِ في (الفعل) أو (الخطاب) الواحد فقد يقتسمان التأثير[23] كما هي الحال في الفعل التعبيري الذي نحن بصدده فقد يغلب على الفعل أن يكون فعل قضية منطويا على رأي أو فكرة وقد يرجح حظ الفعل التعبيري في مقام معين كمقام الرثاء مثلا.

والتعبيرية في شعر المعري ومنه القصيدة التي نحن بصددها على وجه الخصوص أظهر من أن يدل عليها إذ الشاعر في شعره بدا أدنى إلى الإنسان المكلوم الذي خذلته الحياة وأعيته الحيلة فيها:[24]

أما حياتي فما لي عندها فـرج *** فليت شعري عن موتي إذا قدما

صحبت عيشا أعانيه ويغلبني *** مثل الوليد يقود المصعب السدما

وقد مللت زمانا شره لـهب *** إذا دنا لـخبوٍّ عاد فاحتدما

ومن يتأمل شعر المعري تأمل المتمرس الخبير بمحاسن الشعر ومكان القوة والضعف فيه يدرك أن شعر هذا الشاعر وليد عبقرية فذة وسرّ العبقرية في هذه النفس الأبية الثائرة المتمردة على واقع لم يعد في الوسع الصمت عليه.

إن الشاعر لا يجيد إلا إذا رضي أو سخط ولا مكان للإجادة ولا للعبقرية دون هذين وقد تضافرت الشهادتان: شهادة التاريخ وشهادة النص الشعري على أن المعري قد غضب وسخط على الحياة والأحياء فكان مؤدّى ذلك أن عدّ في العباقرة الخالدين الذين تفنى أجسادهم وتبقى آثارهم الشاهد الأمين على عبقرية العبقري.

وصحيح أن المعري لم يألُ جهدا في عرض فلسفته وإبداء رأيه في الحياة والأحياء ولكنه كان يتكئ في ذلك كله على همومه ومعاناته وتجربته المريرة القاسية التي هي صورة عن تجربة الإنسان أجمع وقد عبر أستاذه أبو الطيب المتنبي عن هذه التجربة فأحسن التعبير:[25]

عرف الناس قبلنا ذا الزمانا *** وعناهم في شأنه ما عنانا

وتـولّوا بغـصّة كلهم منـ*** ـه وإن سرّ بعضهم أحيانا

فكلاهما يرى أن العناء مركوز في طبيعة الحياة ولا مطمع في الإفلات منه. وإنا لنقدّر أن التأثير المطلوب في المخاطب قد حصل قصد إليه المعري أم لم يقصد.

وآية ذلك أن القارئ المؤهل وهو يتأمل هذه القصيدة يجد نفسه محمولا على مشاركة الشاعر ضيقه بالحياة وتمرده عليها وعلى القيم السائدة فيها شريطة أن يكون هذا القارئ قادرا على تمثل تجربة الشاعر حتى لكأنه هو. ذلك أن عدوى التأثير والتأثر إنما تحصل من جهة تمثل حال الآخر واستكناه دخائل نفسه وما انطمر فيها وادلهمّ.

والتأثر لا يعني المسايرة بإطلاق في الرأي أو الوجهة. ذلك أننا قد نشارك المعري همومه وآلامه ونرثي لحاله ونشفق عليه ونلتمس له العذر من هذا المنطلق منطلق المعاناة وضيق الصدر بالواقع ولكننا لا نقرّه على تجريد الحياة من كل قيمة وإلا كانت الحياة عبثا تمحي بمقتضاه الحواجز فلا محسن ولا مسيء ولا فاضل ولا مفضول والكل سواء. وللعاقل أن يتساءل: أيّ معنى بقي للحياة بعد هذا؟

إننا نقبل من المعري أن يرى في الحياة ما رأى من مساواته بين الضحك والبكاء وبين الناعي والمبشر على أن ذلك منه نفثة شاعر ولا بد للشاعر أن ينفث وإلا كان في عداد الهالكين. ولكننا لا نقبله منه على أنه حكم العقل الذي من شأنه أن يضع الأمور في مواضعها. ومن باب وضع الأمور في نصابها أن نقبل الحياة على علاتها وعلى ما فيها من خير وشر وضحك وبكاء وجد وهزل وحسن وقبح...إلخ.

أ-فعل القول أو (الخطاب): (26)

صاح هـذي قبـورنا تملأ الرُحـ *** ـبَ فأين القبور من عـهـد عاد

خـفـف الوطء ما أظن أديم الـ *** ـأرض إلا مـن هذه الأجساد

وقـبـيح بنا وإن قدُم العهـ *** ـد هـوان الآبـاء والأجـداد

سر إن اسطعت في الهواء رويداً *** لا اختيالاً على رفات العباد

رُبَّ لحدٍ قد صار لـحـداً مـراراً *** ضاحكٍ من تزاحم الأضداد

ودفيـــنٍ عـلى بـقايا دفيـن *** في طويل الأزمان والآباد

فاسأل الـفرقـديـن عـمّن أحسّا *** من قبيلٍ وآنسا من بلاد

كم أقاما على زوال نهار *** وأنارا لـمدلـج فــي ســواد

ب- الفعل الإنجازي:

فنحن في هذه الأبيات إزاء أفعال متعددة ولكنها متواشجة. ولعل الهيمنة فيها لفعل الاعتبار الذي يحيل عليه ظاهر لفظ (فعل القول) غير أنه ليس مستقلا عن الأفعال التي تواشجه أو تواكبه لاسيما (الفعل التعبيري) الذي يمكن اعتبار علاقته به علاقة وجودية. وإنما تأّتت هذه العلاقة من أن حال الشاعر النفسية هي التي صرفت انتباهه وشدّته إلى ما حوله من الموجودات التي لا تفتأ تقع عليها العين في كل حين "هذي قبورنا تملأ الرحب أديم الأرض من هذه الأجساد رفات العباد رب لحد الفرقدين زوال نهار مدلج في سواد".

فهذه كلها مشاهد تراها العين وهي لا تستمد أهميتها من حسيّتها ولكن مما توحي به من معان نفسية ووجدانية. وللإيحاء أهميته في الشعر ولولا اتكاء الشاعر على الوجدان لكان صنيعه مجرد نظم لا روح فيه. لذلك كانت الجودة في الشعر على قدر الباعث عليه.(27)

وما كان للمعري أن يبلغ من النفوس ما بلغ لولا التعويل على الذات وما اعتمل فيها من البواعث.

فالشاعر الكبير هو الذي يستنطق ذاته يجوبها ويتحسسها ويصغي إليها. ثم يصدر عنها في كل ما يأخذ ويدع.

وكل ما نظم فيه الشعراء أشعارهم مما يخطر بالبال أو تقع عليه الحاسة يظل في منأى عن حقيقة الشعر وجوهره ما لم يتحول إلى تجربة ذاتية تأخذ وقتها كاملا لتنمو في

النفس على التدريج حتى إذا ما اكتمل نضجها وآن لها أن تشق سبيلها إلى الوجود بالفعل نفثها الشاعر كائنا سويّا مؤثرا وممتعا.

وقد يقال: إن المَشَاهد توقظ الحسّ وتستدعي الغائب وتورّث الهمّ أو تشرح الصدر. وهو ما يعني أن الباعث خارجي. وذلك كله صحيح لا سبيل إلى إنكاره غير أن الإقرار به لا يرد ما أسلفنا القول فيه من أن التجربة تنبعث من الذات بعد اعتمالها فيها:(28)

حضرت رحلي الهمومُ فوَجهـ *** ـتُ إلى أبيض المدائن عَنسي

أتسلى عـن الحُظوظ وآسى *** لمحل من آل ساسانَ دَرِسِ

ذكَّرتنيهمُ الخطوبُ التوالي *** ولقد تُذكِر الخطوبُ وتُنسي

لا تناقض إذن بين هذا وذاك فقد يذوب الموضوع في الذات وتذوب الذات في الموضوع لينتج منهما معا الوليد الذي هو أهل لأن يسمّى شعرا بحقّ.

وهذا ما يجعلنا نقرر حقيقة مفادها أن الشعر على وجه العموم والوجداني ومنه الرثاء على وجه الخصوص أقرب إلى الأفعال التعبيرية منه إلى بقية الأفعال.

أ-فعل القول أو (الخطاب): (29)

تعبٌ كلها الحياة فما أعـ *** ـجب إلا من راغبٍ في ازدياد

إنّ حزناً في ساعة الموت أضعا *** ف سرورٍ في ساعة الميلاد

خُلق الناس للبقاء فضلّت *** أمة يحسبونهم للنفاد

إنما ينقلون من دار أعما *** لٍ إلى دار شِقوة أو رشاد

ضجعة الموت رقدة يستريح الـ *** ـجسم فيها والعيش مثل السهاد

ولنسمح لأنفسنا أن نتجاوز الحديث عن الفعلين (القضوي) و(التأثيري) اجتزاء بما سبق من الحديث عن هذين الفعلين ولضيق المقام ثم لأن المدار على (الفعل الإنجازي) لأهميته المتأتية من قصديته.(30)

ب- الفعل الإنجازي:

بقليل من التأمل في هذه الأبيات ندرك أن الهيمنة فيها لـ(الفعل التعبيري) المتمثل في تذمر الشاعر من الحياة ومن هذا التناقض العجيب الذي يراه في سلوك الإنسان فهو من ناحية يشكو شدة وطأتها عليه إلى الحد الذي يبدو فيه الموت راحة: (31)

تعالى رازقُ الأحياء جمعا *** لقدْ وهَتِ المُروءةُ والحياءُ

وإن الـموتَ راحةُ هِبْرِزِيٍّ *** أضرّ بلُبِّـه داءٌ عَياءُ

وهو من جهة أخرى يحب الحياة ويسعى جادا في طلبها ويود لو كتب له البقاء على ما فيها من الأذى والشقاء: (32)

ودنيانا التي عشقت وأشقت ***كذاك العشق معروفا شقاء

سألناها الـبـقـاء عـلى أذاها *** فقالت عـنكمُ حظر البقاء

وللمعري تفسير لهذا الذي يلوح أنه تناقض فهو يرى أن مردّ تعلق الإنسان بالدنيا إلى كراهة الموت وتلك حقيقة مركوزة في الجبلّة إذ كثيرا ما يحب المرء شخصا ما لا لطيب معدنه وصفاء سريرته ولا لِيَدِله عنده لا لشيء من ذلك كلّه ولكنه أحبّ من أحبّ نكاية في الآخر الذي يكرهه. ومن هذا المنطلق ينظر المعري إلى موقف الإنسان من الموت والحياة: (33)

نحبّ العيش بغضا للمنايا *** ونحن بما هوينا الأشقياء

والحقّ أن المسألة يمكن أن تنظر من جهتين:

الأولى: أننا نحب الحياة على ما فيها من العناء والشقاء لأننا نكره الموت. وهو الرأي الذي تبنّاه المعري في البيت المذكور.

الثانية: أننا نكره الموت لتعلّقنا بالحياة.

وهذا الذي يبدو تناقضا بين الرأيين لا يلبث أن يتلاشى عند التحقيق.

ولما نعانيه في حياتنا رأي عند المعري فهو يعزو ما ينال الإنسان في حياته من العنت وضروب الأذى إلى الدنيا فهي بطبيعتها تضمر الشر والسوء: (34)

ما زالت الدّنْيا بأصنافِ ألسُنٍ *** تُبيّنُ عـن غيرِ الجميلِ وتُـعرِبُ

إذا أغربَتْ يوماً برُزْءٍ على الفتى *** فليستْ علـى نفسي بما حُمّ تُغرب

وجـــرّبتُـــها أمَّ الوليدِ لطامعٍ *** ويَيـأسُ من أمّ الوليدِ المجرّب

يـحقُّ لمن يَهوى الــحياةَ بُكاؤه *** إذا لاحَ قرنُ الشمس أو حين تغرُب

وتارة يعزو البلاء إلى الإنسان نفسه فهو القاتل والمقتول والجاني والمجني عليه معا:(35)

إن مازت الناسَ أخلاقٌ يُعاشُ بها *** فإنهم عند سوء الطبع أسواء

أو كان كلّ بني حَوّاءَ يُشبهني *** فبئسَ ما ولدت في الدهر حَوّاءُ

بُعدي من النّاس برءٌ من سقَامِهمُ *** وقربُهم للحِجى والدين إدواءُ

ومن هذا القبيل قوله:(36)

واللّهُ حقٌّ وابنُ آدمَ جاهلٌ *** من شأنه التفريطُ والتكذيبُ

واللُّبُّ حاولَ أن يهُذّبَ أهلَه *** فإذا البريّةُ ما لـها تهذيبُ

من رامَ إنقاءَ الغُراب لكي يرى *** وضحَ الجناحِ أصابه تعذيبُ

ويستقرئ الطوائف والجماعات فينتهي إلى أنهم جميعا مشتركون في صنع المأساة الإنسانية:(37)

وقد فتّشتُ عن أصْحابِ دينٍ *** لهم نُسْكٌ وليس بهم رِياءُ

فألفيتُ البهائـمَ لا عقولٌ *** تُقيمُ لها الدّليلَ ولا ضِياءُ

فـأمّا هـؤلاءِ فأهـلُ مَكرٍ *** وأمّا الأوّلـونَ فأغبياءُ

ويقول في موضع آخر:(38)

مـلَ المقام فكم أعاشر أمَّةً *** أمرت بغير صلاحها أُمراؤُها

ظلموا الرَّعيَّةَ و استجازوا كيدَها *** فَعَدَوا مصالحها وهم أُجراؤُها

فـرِقٌ شعرتُ بأنها لا تقتني *** خيراً وأنَّ شرارها شُعراؤُها

أَثرتْ أحـاديثَ الكرام بزعمها *** وأَجاد حبسَ أَكُفِّها إثراؤُها

وهكذا نرى المعري يعزو ما نال الإنسان من العناء والشقاء في الحياة إلى أكثر من مصدر. إذ فلا يكاد يستقر الرأي على مصدر منها حتى يلوح في أفق التفكير مصدر آخر غير ذلك الذي رأى من قبل.

أ-فعل القول أو (الخطاب): (39)

أبنات الهديل أسعدن أَوْعِدْ *** نَ قليل العـزاء بالإسعاد

إيهِ لله دركـن فـأنتـن الـ*** ـلواتـي تحسن حفظ الوداد

ما نسيتن هالكا في الأوان الـ *** خال أودى من قبل هلك إياد

بيد أني لا أرتضي ما فعلتنـ *** ـن وأطـواقكن في الأجيـاد

فتسلبن واسـتعرن جـميعـا *** من قميص الدجى ثياب حداد

ثم غردن في المآتم واندبـ *** ـن بشجـو مع الغـواني الخراد

ب- الفعل الإنجازي:

لعل الشاعر هنا كفانا الإعمال والتحسّس وكل ما نحتاج إليه للوقوف على (الفعل الإنجازي) الذي يكون قد قصد إليه قصدا فقد كفانا بظاهر لفظ (فعل القول). إن (الفعل التعبيري) في هذه الأبيات ظاهر كل الظهور والأكثر من ذلك أنه فعل مركز بالغ الحضور والتأثير ولنا على ذلك من توالي الأفعال (فعل النداء - أبنات الهديل وفعل الاستزادة –إيه وفعل التعجب – لله درّكن) شاهدٌ ودليلُ.

وما على الشاعر وقد استبد به الهم والغم والحزن والأسى من تثريب أن يعتصم بالنداء "أبنات الهديل" نداء حبيب إلى النفس رجاء أن يشاركه مصابه وفي ذلك بعض العزاء. وكنا من قبل قد ذكرنا ما بدا لنا من الأسباب التي عادة ما تلجئ الشعراء إلى أن يخاطبوا الطير والشجر والمكان... الخ وظاهر أن (فعل النداء) هو ذاته الباعث على (فعل

الاستزادة) "إيهِ" استزادة أملاها استشعار الضعف ضعف من استوحش من حوله المكان وتقطعت به الأسباب وعبثت به الغير والتقلبات. وما للمعري ألا يستزيد بنات الهديل وقد برَّح به الحزن على الفقيد وعناءُ الحياة وتكاليفها؟.

ويُشفِّع الشاعر هذين الفعلين بفعل التعجب "لله دركنّ" التعجب من حسن صنيع المنادَى (بنات الهديل). وحق للشاعر عليهن أن يسعدنه ويحفظن العهد الذي قطعنه على أنفسهن والقاضي بالإحسان إلى الآخر ومواساة البائسين.

ولم تُنْسِ المناسبةُ المعري نكتته البلاغية الساخرة التي عُهد بها. وتمثلت هذه النكتة هنا في العتب على بنات الهديل لما يراه عليهن من الزينة زينة الأطواق والمقام مقام حزن وأسى. يعتب عليهن لذلك وهو يعلم أنها زينة طبيعية لا حيلة لهن فيها. وقد ذهب في هذا مذهب حسن التعليل.

وساغ للمعري أن يعمد إلى هذه النكتة في تقديرنا لما توحي به من التناقض الذي هو من طبيعة الحياة: خير يقابله شر وجدٌّ يقابله هزل وضحك يقابله بكاء وهكذا:[40]

من لك بالمحض وكل ممتزج *** وساوس في الصدر منه تعتلج
مازالت الدنيا لنا دار أذى *** ممزوجة الصفو بألوان القذى
الخير والشر بها أزواج *** لذا نتاج ولذا نتاج
من لك بالمحض وليس محض *** يخبث بعض ويطيب بعض
لكل إنسان طبيعتان *** خير وشر وهما ضدان

ولا شك أن المعري قد رأى في الدنيا ما رآه أبو العتاهية في هذه الأبيات. وفضلا عن ذلك فإن في النكتة كسرا لرتابة الجد والحزن الذي ألقى بكلكله على الصدور والنفوس.

والجدير بالذكر أن التعبيرية في هذه القصيدة –ليست قصرا على الفقيد بل ربما تعدّته إلى التعبير عن تجربة الشاعر المريرة في الحياة وتجربة الإنسانية في عمومها.

لذلك نرجح أن يكون المعري قد اتخذ من المناسبة مناسبة الفقيد سببا للتعبير عن تلك التجربة وعرض فلسفته ورأيه في الحياة التي خذلته فيها أسباب القوة والتوفيق فإذا هو يجد نفسه بين يدي (أمّ دَفْرٍ) لتعبث به وتنال منه العاديات منالها:[41]

خطوب تــوالت لا يزال معذّبا *** أخوها وحلّت كلّ كفٍّ وساعد

وما فوق هذي الأرض إلا مؤهّل *** لِهَمٍّ فقاربٌ في الـظنـون وباعد

إن تعبيرية المعري ليست انفعالا عارضا يزول بزوال أسبابه الطارئة ولكنها تجربة غائرة في أعماق النفس ما انفكت الأيام والليالي بمحنها وإحنها وصخبها تعمل على صهرها في رحم المعاناة إلى أن أوفت بها إلى نهايتها قصيدةً ناطقةً بشخص المعري ومعاناته ثم معاناة الإنسان من حيث هو إنسان خُلق ليصارع غيرَ مبالٍ بالسوانح والبوارح وإلا لكانت الحياة غير الحياة. ولله في الخليقة الحكمة البالغة.

الهوامـــش و المراجـــع

1-ينظر: جون لانكشو أوستين نظرية أفعال الكلام العامة –كيف نصنع الأشياء بالكلام ترجمة عبد القادر قنيني أفريقيا الشرق-المغرب ط2 2008 ص 123 وما بعدها.
و: شكري المبخوت دائرة الأعمال اللغوية- مراجعات ومقترحات دار الكتاب الجديد المتحدة ط1 2010 ص 21 22 23.
و: أحمد المتوكل دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي دار الثقافة للنشر والتوزيع الدار البيضاء ط1 1986 ص109.
و: ك. أوريكيوني فعل القول من الذاتية في اللغة ترجمة محمد نظيف أفريقيا الشرق المغرب ط 2007 ص 40 41 42.
2- ينظر: أحمد المتوكل قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية دار الأمان الرباط ص 22.
و: كارل أوتوابل تفكير مع هابرماز ضد هابرماز ترجمة عمر مهيبل الدار العربية للعلوم منشورات الاختلاف المركز الثقافي الروحي ط1 2005 هامش ص 64.
3- ينظر: كارل أوتوابل: المرجع نفسه هامش ص 24.
و: راث كيمبسون: نظرية علم الدلالة (السيمانطيقا) ترجمة عبد القادر قنيني دار الأمان الرباط ط1 2009 ص 43.
4- ينظر: شكري المبخوث المرجع السابق ص 41.
5- ينظر: فان دايك: النص والسياق – استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي ترجمة عبد القادر قنيني أفريقيا الشرق 2000 ص 316 وما بعدها وكذا ص 309 وما بعدها.
6- ينظر: إدريس سرحان التأويل الدلالي – التداولي للملفوظات وأنواع الكفايات المطلوبة ضمن كتابه: التداوليات علم استعمال اللغة إعداد وتقديم حافظ إسماعيلي الملوي إربد الأردن ط1 2011. ص127.
و: شكري المبخوت المرجع السابق ص 43 46 47.
7- أبو العلاء أحمد بن سليمان المعري سقط الزند دار بيروت للطباعة والنشر- بيروت ص7.
8- أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني مجمع الأمثال تقدير وتعليق نعيم حسين زوزور دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط3 2010 ج2 ما جاء فيما أوله "لا" ص 285.

9- النابغة الذبياني ديوان النابغة الذبياني جمع وتحقيق وشرح محمد الطاهر ابن عاشور الشركة التونسية للتوزيع والشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1976 ص 184.

10- الخنساء تماضر بنت عمرو الشريد السلمي ديوان الخنساء دار الأندلس للطباعة والنشر بيروت ط6 1969 ص145.

11- أبو الفرج الأصبهاني كتاب الأغاني تحقيق وإشراف لجنة من الأدباء دار الثقافة بيروت لبنان ط6 1983 ج12 ص 85-86.

12- ينظر: فان دايك المرجع السابق ص 316 وما بعدها وكذا ص 309 وما بعدها.

13- ينظر: فان دايك المرجع نفسه ص 346-347.

و: شكري المبخوث المرجع السابق ص 46 وما بعدها.

و: إدريس سرحان المرجع السابق ص127.

14- ينظر: قاضي القضاة بهاء الدين عبد الله بن عقيل شرح ابن عقيل على ألفية بن مالك ومعه كتاب منحة الجليل بتحقيق شرح ابن عقيل دار العلوم الحديثة بيروت لبنان ج2 ص 106 وما بعدها.

و: رضي الدين محمد بن الحسين الأستراباذي شرح كافية ابن الحاجب تقديم وتحشية وفهرست إميل بديع يعقوب دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط2 2007 ج1 ص 198-199.

15- أبو الطيب المتنبي أحمد بن الحسين ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري المسمى بالتبيان في شرح الديوان ضبط وتصحيح وفهرست مصطفى السقا وآخرين دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت لبنان ج2 ص 269.

16- أبو علاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المعري ديوان لزوم ما لا يلزم تقديم وشرح وفهرست وحيد كبابة وحسن حمد دار الكتاب العربي بيروت لبنان 2009 ج1 ص 595.

17- أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المعري المرجع نفسه ج2. ص 557.

18- أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المعري ديوان سقط الزند ص 14.

19- أبو العتاهية إسماعيل بن القاسم ديوان أبي العتاهية دار صادر للطباعة والنشر بيروت 1964 ص494.

20- أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المعري ديوان لزوم ما لا يلزم ج2 ص 218-219.

21- أبو الطيب أحمد بن الحسين المتنبي المرجع السابق ج4 ص 174-175.

22- ينظر: شكري المبخوت المرجع السابق ص 84-85-87.

23- ينظر: المرجع نفسه ص 66.

24- أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المعري المرجع السابق ص 359.

25- أبو الطيب أحمد بن الحسين المتنبي المرجع السابق ص 239.

26- أبو العلاء أحمد بن سليمان المعري سقط الزند ص7-8.

27- ينظر: أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده تقديم وشرح وفهرست صلاح الدين الهواري وهدى عودة دار ومكتبة الهلال للطباعة والنشر ج1 ص339 وما بعدها.

و: عبد الله بن مسلم بن قتيبة الشعر والشعراء طبقات عالم الكتب ط3 1984 ص 6 إلى 9.

28- عبد اللطيف شرارة شعراؤنا القدامى: أبو عبادة البحتري – دراسة ومختارات الشركة العالمية للكتاب ش م ل ط1 1990 ص 75.

29- أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المعري سقط الزند ص8.

30- ينظر: شكري المبخوت المرجع السابق ص 41-43.

31- أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المعري ديوان لزوم ما لا يلزم ج1 ص 51.

32- نفسه ص 53.

33- نفسه ص 52.

34- نفسه ص 83-84.

35- نفسه ص 49.

36- نفسه ج1 ص 97.

37- نفسه ج1 ص 51.

38- نفسه ج1 ص 54.

39- أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المعري سقط الزند ص8-9.

40- أبو العتاهية إسماعيل بن القاسم مرجع سابق ص 494.

41- أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المعري ديوان لزوم ما لا يلزم المرجع السابق ص 338.